

المبحث الثالث

وحدة الأديان

يرجع تأسيس هذا المصطلح إلى الحركة الماسونية العالمية ، التي تهدف إلى وحدة الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام ، وذلك لقيامها على الإيمان بالله تعالى ، وبالتالي عدم التعصّب لدين من الأديان من أهله. ويختلف هذا التصوّر مع ما يعتقده المسلم من أنّه ما جاء دين قوم إلّا لينسخ سابقه ، والإسلام ناسخ لما سبقه من الأديان بلا استثناء ، وأنّ الله لا يقبل أن يعبد إلّا بها بعث به خاتم النبيّين محمد ﷺ. فكانت دعوته ﷺ للناس كافة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) ، برّهم وفاجرهم ، مؤمن وكافر ومنافق بلا استثناء ، حتّى يهدي الله عباده سبل السّلام. وقد يُظنّ أنّ دعوة توحيد الأديان والتي تعني في جوهرها التشويش على المسلمين وحملهم على ترك التمسك بالإسلام والحرص عليه قد انتهت ، لكن وللأسف ولغفلة المسلمين فإنّ تلك الدّورة ما تزال قائمة بل وأصبحت أكثر خطرا ، لالتقاء مقاصد هذه الدعوة مع الأهداف الكبرى لمنظومة النظام الدّولي الجديد ، الذي تفرض قوانينه عولمة الثقافة والاقتصاد والمصالح السياسية والديّين كذلك.

لذلك فإنّ مشروع توحيد الأديان الذي ييشّرون به إنّما يحمل في طيّاته مقصدا خطيرا يتمثّل في محو الأديان لصالح مشاريع عنصرية خطيرة. فهو لا يعني جمع

الأديان على قاسم مشترك ، وخاصة الأديان ذات الأصل التوحيدي ، وإنما يهدف إلى إقامة « دين عالمي » جديد يحل محل الأديان السابقة^(١). وذلك أمر مستحيل ، لتنافيه أولاً مع الطبيعة الإنسانية والسّنن الكونية ، فثمّة أسباب للاختلاف بين البشر أكثر من أن تحصى ، ولقد أثبت التاريخ الإنساني هذه الحقيقة ، وثانياً للاختلاف الجوهرى بين دعوة الإسلام التوحيدية وبين الانحراف الذي أصاب باقي الأديان وأخرجها عن الخطّ الرسالي الذي يتّمي إليه كلّ الرسل والأنبياء. والإسلام دين النّاس كافّة ورحمة للعالمين ، لم يُكره أحداً على اعتناقه أو دخوله عنوة ، لمخالفة ذلك مبدأ التكليف وتحمل المسؤولية . بل أقرّ الإسلام وجود أديان أخرى يعتنقها النّاس برغم انحرافها وزيفها ، ولم يجعل ذلك سبباً للمسلمين يتذرّعون به ليكرهوا أتباع تلك الديانات على تبديل معتقداتهم نحو الإسلام. وأي معنى لحرية التدين والاختيار وتحمل مسؤولية مآلات ذلك بعد أن يكره الإنسان على أمر لم يُرده.

ولقد ذهب القرآن الكريم إلى أبعد من ذلك ، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هُدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ ﴾^(٢) ، أي لهدمت صوامع الرّهبان ، وبيع النصارى ، وصلوات اليهود ، وهي كنائسهم ، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً^(٣) ، فهي كلّها معرضة للهدم - على قداستها وتخصيصها لعبادة الله - لا يشفع لها في نظر الباطل أنّ اسم

(١) انظر كتابنا: محاضرات في الفرق والمذاهب، ص ١٢٨ وما بعدها.

(٢) سورة الحجّ: ٤٠.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، طبعة ١ / ١٩٩٩، ٢٥٢ / ٣.

الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها ، ويعتدون على أهلها ، فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يُدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول^(١) .
وينفرد ابن عاشور^(٢) بفهم آخر للآية ، فالمعنى عنده منصرف إلى ضرورة دفاع الناس كافة عن المسلمين: « لولا دفاع الناس عن مواضع عبادة المسلمين ، لصري المشركون ولتجاوزوا فيه المسلمين إلى الاعتداء على ما يجاور بلادهم من أهل الملل الأخرى المناوية للملة الشرك ، ولهدموا معابدهم من صوامع وبيع وصلوات ومساجد ، يذكر فيها اسم الله كثيرا ، قصدا منهم لمحو دعوة التوحيد ومحقا للأديان المخالفة للشرك ، فذكر الصوامع والبيع ، إدماج ليتبها إلى تأييد المسلمين » .

إن أقصى ما تتوق إليه البشرية هو حرية الفكر والعقيدة ، وهو التعبير الحي عن احترام كرامة الإنسانية ، واحترام العقل ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾^(٣) ، وكثيرة هي الآيات القرآنية التي تقرّر مبدأ الاختلاف: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ ۝ ﴾^(٤) ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآءَاتِكُمْ ۝ ﴾^(٥) ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ

(١) سيّد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، طبعة ٢٥ / ١٩٩٦ ، ٤ / ١٧ / ٢٤٢٥ .

(٢) التحرير والتنوير: ٨ / ١٧ / ٢٧٦ .

(٣) سورة البقرة: ٢٥٦ .

(٤) سورة هود: ١١٨ ، ١١٩ .

(٥) سورة المائدة: ٤٨ .

مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ،
﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً
وَاحِدَةً ﴾ (٣) ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (٤) . إلا أن لهذا الاختلاف
مقتضياته وهو التدافع والتعاون. وكما أن الاختلاف آية من آيات الله تعالى في
خلقه ، فإن التدافع هو أحد مقتضياته ، وبذلك تتحقق مصالح العباد ، وهو ما
ذهب إليه سيد قطب (٥) بقوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ
بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٦) :
« وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله
العليا في الأرض من اضطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار
الحياة المتدفق الصّاحب الموار ، وهنا تتكشف على مدّ البصر ساحة الحياة المترامية
الأطراف تموج بالناس ، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات ، ومن ورائها جميعا
تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعا ، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع
المتسابق ، إلى الخير والصّلاح والنماء ، في نهاية المطاف .

لقد كانت الحياة كلّها تأسن وتتغنّى لولا دفع الله للناس بعضهم ببعض ،
ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم

(١) سورة يونس : ٩٩ .

(٢) سورة هود : ١١٨ .

(٣) سورة النحل : ٩٣ .

(٤) سورة الشورى : ٨ .

(٥) في ظلال القرآن : ١ / ٢ / ٢٧٠ .

(٦) سورة البقرة : ٢٥١ .

واتجاهاتهم الظاهرية القريبة ، لتنتلق الطاقات كلّها تتزاحم وتتغالب وتتدافع ، فتنفض عنها الكسل والخمول ، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة ، وتظلّ أبداً يقظة عاملة ، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة ، وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء...» .

ولا يجب أن يستقرّ في ذهن المسلم أنّ القرآن الكريم يقرّ انحراف تلك الأديان والملل ، أو يعتبرها مقبولة عند الله تعالى ، فلقد راجت دعوة مشبوهة تستهدف تعزيز الدّعوة إلى وحدة الأديان مستعينة بنصوص من القرآن الكريم ، تفسّر بحسب أهواء دعائها. فيأولون قوله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١) ، بأنّ جميع الأديان عند الله الإسلام ، وأنّ أخذت سنداً لدعوة توحيد الأديان لاعتبار الأديان الثلاثة الكبرى امتداداً للإبراهيمية. وهو ما ذهب إليه محمود أبو ريّة في كتابه « دين الله واحد » ، حيث قام فيه بعرض تحليلي للأصول التاريخية والعقائدية للأديان السماوية الثلاثة ، معتمداً على آيات قرآنية ومستشهداً بما ورد في « الكتاب المقدّس » ، يستهدف بذلك الانتصار إلى فكرة وحدة الأديان ، عارضاً جملة آراء جمال الدّين الأفغاني ، وخاصّة محمّد عبده ، الذي أسهم بفاعلية في تأسيس جمعية التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة ، ثمّ أورد كلمة حاخام اليهود الأكبر ، الذي يعتبر أنّ تباين العقائد والأديان حكمة إلهية يصعب على المرء إدراك كنهها وكشف سرّها ، بيّد أنّ هذا التباين لا يحول - بحسب رأيه - دون اتّحاد القلوب وصفاء النفوس^(٢) ، ثمّ أورد آراء للقس « إسحاق طيلر » حول

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

(٢) ص ١٩ .

الإسلام والمسلمين ، مليئة بالشبهات والدّس ، بقصد تبليغ مفاهيم خاطئة للمسلمين ، حتّى لا يجدوا كبير فرق بين دعوة سيّدنا محمد ﷺ الخاتمة وبين التحريف الذي أصبح ديناً في النصرانية. ويصرّح محمود أبو ريّة بقوله: « وإني لأرفع صوتي بالدّعوة إلى تأليف جمعية تربط بين أصحاب الفكر والعقل من المسلمين وأهل الكتاب جميعاً ، وتعمل على تأليف القلوب بين أهل الأديان ، وصفاء النفوس بين جميع بني الإنسان »^(١).

وقد نشر في بيروت عام ١٩٨٠ كتاب فيه دعوة للحكومة العالمية ووحدة الأديان ، نشرته جهة مجهولة باسم كاتب مستعار « مصطفى جحا » ، تحت عنوان « محنة العقل في الإسلام » جاء فيه: « هذا الدّين ، متى جاء سيؤكّد طبعاً أنّ محمّداً ليس آخر الأنبياء ، وأنّ الإسلام ليس نظام الأوّلين والآخرين... أليس بقاؤنا في سلام دون الله ومحمّد أفضل من الحرب في سبيل الله ومحمّد ». كما أنّ مشروع توحيد الأديان يقتضي إخلاء العقول والأذهان من أية أفكار مسبقة أو عقائد موروثة ، وهو ما دعى إليه مؤتمر شيكاغو بالولايات المتّحدة الأمريكية الذي عُقد في أواخر آب / أغسطس من عام ١٩٩٣ ، وقد سمّي « برلمان ١٩٩٣ لأديان العالم » ، حضره آلاف من ممثلي الديانات العالمية ، وقد اختتم بنداء « من أجل تحقيق السلام العالمي من خلال الوحدة والاحترام المتبادل والتفاهم » ، وناشد رئيس اللّجنة الإفريقية الأمريكية ، التي تستضيف الاجتماع « ليون فيني الابن » الزعماء الدّينيين أن « ينحّوا جانبا كلّ العوامل التي تفرّق بيننا ويتمسّكوا بتلك المشاعر والأفكار التي من شأنها أن توحد بيننا ».

إنّما دعوة صريحة للانسلاخ من كلّ عقائدنا الدينية التوحيدية التي جاء بها الدين الخاتم ، وبذلك تنكشف حقيقة هذا المشروع التدميري ، وهو ما ظهر للعيان ولم يعد خافيا على العامّة من المسلمين فضلا عن نخبهم ، خاصّة مع الحملات الهوجاء التي استهدفت الإسلام والمسلمين في عقر ديارهم . وما الحملات العسكرية وحركة الاستعمار الجديد ، وتدنيس حرّمات المسلمين والتعدي على مقدّساتهم وأعراضهم بكلّ همجية ، إلّا خير دليل على ما ذهبنا إليه في بداية عرضنا لهذه الفكرة . وأنّ الذين عجزوا عن تحقيقه بالإغراء والفتنة واستمالة أصحاب القلوب المريضة من المسلمين ، أرادوا فرضه بقوة السلاح وإنّ أدى ذلك إلى إبادة شعوب بأكملها ، ولعلّ ما حصل في أفغانستان والعراق وكثير من البلاد الإسلامية يغني عن تقصي الأدلّة . وللأسف الكبير فقد انجرف في هذا التيار كثير من روّاد الإصلاح في العالم العربي والإسلامي ، وقد أثر عن جمال الدّين الأفغاني قوله : « رجعت إلى أهل الأرض وبحثت في أهمّ أمورهم فوجدته في الدّين ، فأخذت الأديان الثلاثة وبحثت فيها ، فوجدت الموسويّة والعيسويّة والمحمّدية على الاتّفاق في المبدأ والغاية ، وإذا نقص في الواحد شيء من أوامر الخير استكملته الثانية ، وهنا لاح لي بارق كبير أن يتّحد أهل الأديان الثلاثة »^(١) .

إلّا أنّ هذا الأمر يتعارض مع دلالة الآيات القرآنية التي تحدّد الموقف الإسلامي من هذه الدّعوة الباطلة ، والتي ما قامت إلّا للطّعن في الدّين وإبعاد النّاس عن المعتدّ الحقّ وبثّ بذرة الفساد ، وزرع أسباب الفتنة :

﴿ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا

تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا
أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ .

- ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ ۚ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ .

- ﴿قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُتِّمِلُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا
تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٣﴾ .

- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ وَقَالَ الْمَسِيحُ
يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۚ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٤﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ .

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا
نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلنا به إلا كان من أهل النار » ^(٥) ، فالكفر
بمحمد ﷺ كفر بالإسلام ، ولن يُقبل من الكافر به إيمان ولا عبادة ولو أقام على

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) سورة المائدة : ٥١ .

(٣) سورة المائدة : ٦٨ .

(٤) سورة المائدة : ٧٢-٧٣ .

(٥) سبق تخريجه .

دين سابق ، فكيف بمن يدعو لتوحيد الأديان وصهرها معا ، والقرآن يقول :
﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾^(١).
